



الى أن يسكت ، وذلك عند من كان مغتاضاً يكون أكثر و اوفر .
وقال بعضهم فى قوله تعالى : ﴿ ولا طعام إلا من غسلين ﴾ (الحاقة ٦٩ : ٣٦) إنى أراهم يأكلونه
عياناً .

وقال العلامة الدوانى : سمعت من أستاذى العالم العامل ، محى الملة والدين ، محمد
الأنصارى - نقلا عن بعض من لاقاه من الثقات - : إنه كان فى بعض نواحي فارس بعض
من الأولياء ، فدخل عليه ذات يوم واحد من أهل الدنيا ، وكان ذلك الولى مستغرقاً فى
حالته ، فلما نظر عليه قال لخدمه :

أخرج هذا الحمار . ولم يكن يرى منه إلا صورة الحمار التى هى صورته فى المواطن
الأخروى ، ثم بعد أن زال عن هذا الحال أخبره الخادم بما جرى فقال : « ما قلت إلا ما
رأيت ، ولم أكن واقفاً على ما تقول » . ومثل هذه الحكاية منقول عن كثير من المكاشفين .

المقالة العشرون

فى قوله تعالى : ﴿ هم فيها خالدون ﴾

وفيه مناظر :

المنظر الأوّل

فى فائدة لفظ «الخلود» ها هنا

اعلم أن بعض الممكورين بالعقل - من ضلال الملاحدة وجهال الفلاسفة والطباعية
وغيرهم - لفرط غفلتهم وغلبة مغاليط ظنونهم قد ظنوا أن قبائح أعمالهم وفضائح أفعالهم
وأقوالهم لا يؤثر فى صفاء أرواحهم وتغيير أحوالهم ، فإذا فارقت الأرواح الأجساد يرجع كل
شئ الى أصله ، فالأجساد ترجع الى العناصر ، والأرواح ترجع الى حظائر القدس ، و
لا يراحمها شئ من نتائج الأعمال إلا أياماً معدودة ، كما حكى الله عنهم فى قوله : ﴿ وقالوا
لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾ (البقرة ٢ : ٨٠) وذلك بقدر فطام الأرواح عن لبان التمتع
الحيوانية .

وهذا ظن فاسد وكفر صريح من وساوس الشيطان وهو اجس النفس وليس بمعقول ، لأن
العقل يشاهد حساً وعقلاً أن تتبع الشهوات الحيوانية واستيفاء اللذات النفسانية يورث
الأخلاق الذميمة من الحرص والحقد والحسد والبغض والغضب والبخل والكبر والكذب

وغير ذلك، و أن الذي يرتاض نفسه بالمجاهدات وترك الشهوات ونهى الهوى عن المألوفات والمستلذات، ويمنعها من الأخلاق المذمومات، يورث هذه المعاملات مكارم الأخلاق وصفاء القلب ودقة النظر وصدق الفراسة واصابة الرأي ونور العقل وعلو الهمة وخلو السر عن محبة الباطل وشوق الروح الى درك الحق وتحننه الى وطنه الأصلي وغير ذلك من المقامات العلية والأحوال السنية .



فالعاقل لا يشك في أن الروح المتبع للنفس الأمارة - كما يكون للعوام - لا يكون مساوياً بعد المفارقة مع الروح المتبع للهامات الحق - كما يكون للخواص - كقوله تعالى: ﴿أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أمن يمشى سوياً على صراط مستقيم﴾ (الملك: ٦٧: ٢٢) .
 وبعضهم قالوا: وإن تكدرت الأرواح بقبائح أعمال الأشباح و تدنست بقدر تعلقها بمحوبات طباعها، فبعد المفارقة بقيت في العذاب أياماً معدودات على قدر انقطاع التعلقات عنها وزوال الكدورات، ثم يتخلص من العذاب ويرجع الى حسن المآب .
 وهذا أيضاً وهم فاسد وخيال كاسد، فكذبهم بقوله: ﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ (البقرة: ٢: ٨١) يعنى من كسب سيئة يظهر بقدرها على مرآة قلبه ريناً، فان تاب محى عنه، و إن لم يتب ويصير على السيئات حتى أحاطت بمرآة قلبه رين سيئاته بحيث لا يبقى فيه صفائه الفطري، وخرج منه نور الايمان و ضياء الطاعات، فأحبط أعماله الصالحات وأحاطت به الخطيئات، فهو خالد في النار مؤبداً، يدل على هذا قوله: ﴿بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ (المطففين: ٨٣: ١٤) .

المنظر الثاني ومطالعات فرينى

في بيان أن منشأ الخلود في النار هو الكفر لاغير
 خلافاً للمعتزلة القائلين بأن صاحب الكبيرة يخلد في النار

والتحقيق في هذا أن رؤساء أتباع الشيطان في خلقه الانسان كما مر ثلاثة : القوة الوهمية التي هي رئيس المدارك الجزئية الحسية، ينبعث منها الشوق الى اللذات النفسانية، والقوة الشهوية التي هي رئيس سائر القوى الخيالية للمقاصد الحيوانية الصارفة للنفس عن طريق الاخرة والمطالب الأخروية، والقوة الغضبية التي هي منشأ الموديات الضارة ومبدأ الجنانية والجور والقهر والغلبة على بنى النوع والجنس .



وكلّ منها يدعو الانسان بحسب طبعها وناريتها المكمونة فيها، فاذن هي كأنها نيرانات كائنة في أحجار كبريتية، وقودها المشتهايات من ملاذ الدنيا ونعيمها، واستعمال تلك النيران عند الوقود كأنها حريق لا يطفىء ولهب لا يخمد، كأموج بحر متلاطمة أو كرياح عاصفة تدمر كل شيء .

أو لاترى أنّ حرارة شهوة المأكولات عند الجوع كأنها لهيب نيران لا يطفىء، وحرارة شهوة المنكوحات عند هيجان الحركة كأنها حريق نار ترمى بشرر كالقصر، وحرارة نار الكبر والغضب كأنها تدعى الربوبية، وحرارة نار الافتخار والمباهات كأنها أعلى موجود وأفضل معبود، والناس عبيد وخدم لها .

إلا أنّ منبع جميع هذه النيرانات وكبريت هذه الشعلات هي «القوة الوهمية» التي هي مبدء الغواية والضلالة والمغالطة وسوء الظن و الداعى الى الشرّ بكفره وغلطه وتغليطه و وسوسته، فإنّ «الوهم» ما لم يتروّج الباطل في صورة الحق لم ينبض عرق الجاهليّة والقباحة في شيء من القوى، فهو أول من قرع باب الكفر والانكار والجحود والعناد والاستكبار، ثمّ عمل بوفقه القوى العمالة التي هي من توابعها، كما قال الله تعالى: ﴿ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار* جهنّم يصلونها فبئس القرار﴾ (ابراهيم: ١٤: ٢٩).

وإنّما عظم الله تعالى أمر الأفعال القبيحة المنسوبة الى المبدأ الادراكي الوهمي ما لم يعظم في قبائح أفاعيل القوى الغضبية كالقتل، والشهوية كالزنا وأمثالهما، أو لاترى أنّه قد عظم أمر الافك في الوعيد ما لم يغلظ في غيره، حيث قال: ﴿إنّ الذين جاؤا بالافك لاتحسبوه﴾ (النور: ٢٤: ١١) فبالغ عليه بما لم يبالغ في باب الزنا وقتل النفس المحرمة، لأنّ عظم الرذيلة وكره المعصية إنّما يكون على حسب القوة التي هي مصدرها، فيتفاوت حال الرذائل في حجب صاحبها عن الحضرة الالهية والأنوار القدسية وتوريطه في المهالك الهيولانية والمهاوى الظلمانية على حسب تفاوت مبادئها، فكلّما كانت القوة التي هي مصدرها ومبدئها أشرف كانت الرذيلة الصادرة منها أردأ أو بالعكس، لأنّ الرذيلة ممّا يقابل الفضيلة، فكلّما كانت الفضيلة أشرف كان ما يقابلها من الرذيلة أحسّ، والافك رذيلة القوة الناطقة الوهمانية، والزنا رذيلة القوة الشهوية، والقتل رذيلة القوة الغضبية فبحسب فضل الأولى على الباقيين تزداد رذائلها ودوام عقابها .



وذلك أن الانسان إنما يكون انساناً بالأولى وبها يكون ترقيه الى العالم العلوى وتوجهه الى الجناب الالهى ، وتحصيله للمعارف والكمالات ، واكتسابه للخيرات والسعادات ، وإذا فسدت بغلبة الشيطان عليها واحتجبت عن النور باستيلاء الظلمة ، ونزلت عن رتبة الأرواح الى درجة الشيطان ، حصلت الشقاوة ووجبت العقوبة بالنار الكبرى ، وهو الرين والحجاب الكلى ﴿كلّما بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ * كلّاً إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴿ (المطففين (٨٣): ١٤-١٥)

ولهذا حكم على الكفار بالخلود فى النار فى قوله: ﴿هم فيها خالدون﴾ فبان دوام العذاب وخلود العقاب بفساد الاعتقاد ، دون فساد الأعمال ، فإن لصفات الناشئة من الأعمال وإن كانت نفسانية إلا أنّها كالعوارض ، والفساد فى العارض للشىء يرجى زواله بخلاف سوء الاعتقاد فى الله وحقائق الملكوت وانكار المعاد وانكار الأنبياء والأولياء ، والجهل بأحوالهم وطريقهم الى الحق ، فإنّه داخله فى قوام الروح كما قرّناه ، والفساد فى ذات الشىء وقوامه يوجب الهلاك ، وموت الروح بالجهل لا ينافى بقاء النفس المنكوسة لأجل خلود العقاب كما هو التحقيق عند أرباب الحكمة الايمانية .

فرديلة الناطقة النفسانية الانسانية توجب خلود العقاب بخلاف رديلة القوتين الباقيتين ، كما قال الله تعالى: ﴿إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ (النساء (٤): ٤٨) .

وذلك لأن رديلة كل منهما إنّما تصدر بظهورها على القوة النطقية ، ثمّ ربّما محيت بانقهارها وتسخرها لك عند سكون هيجانها وفتور سلطانها باستيلاء غلبة النور وتسلطها عليها بالطبع ، كحال النفس اللوامة عند التوبة والندامة .

وإن فرض أنّها بقيت فى الاضرار وترك الاستغفار ، ولكن لا تبلغ رديلتها مقام رديلة الروح الذى هو محل معرفة الله و مناجاة الرب ، ولا تتجاوز حد الصدر ولا تصير الفطرة بها محجوبة والحقيقة منكوسة ، بخلاف رديلة الناطقة ، ألا ترى أنّ الشيطنة المعنوية للأولى أبعد عن الحضرة الالهية من السبعية والبهيمية بما لا يقدر قدره . فالانسان برسوخ الرديلة النطقية يصير شيطاناً مريداً والشيطان الذى هو ابليس إنّما كان أبعد الخلق عن الله تعالى ، وموضع اللعن هو ابليس ومظهر اسم «المضل» ؛ لأنّه كان جبرئيل الأصل ، فبالجهل المركب انقلب عن كونه ملكاً كريماً الى كونه شيطاناً لعيناً ، ورسوخ الرديلتين الآخرين يصير حيواناً



كالهيممة أو السبع، وكل حيوان أرجى صلاحاً وأقرب فلاحاً من الشيطان، ولهذا قال تعالى ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين﴾ تنزل على كل أفاك أثيم ﴿الشعراء (٢٦): ٢٢١-٢٢٢﴾ وذلك لكونه أبعد عن قبول التغيرات والاستحالات، بخلاف الحيوان لكونه أقرب الى أفق ما يتغير ويستحيل فينجو عن العذاب .

فثبت مما ذكرنا أن ذنوب القوة النطقية ومعاصيها أعظم عند الله من ذنوب القوة الجسمانية، وأما عند جمهور الناس حيث يكون نظرهم مقصورة على الأمور المحسوسة فالأمر بعكس ذلك، ولهذا المعنى قال سبحانه في باب الافك: ﴿وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم﴾ (النور (٢٤): ١٥).

فعلم مما ذكرنا فساد مذهب المعتزلة والزيدية القائلين بخلود صاحب الكبيرة مطلقاً في النار، وقد أشرنا سابقاً أن ضرباً من الكبائر التي توجب للنفس رذيلة نطقية راسخة أو يكون نفس تلك المعصية كاشفة عن ذلك كصدور بعض المعاصي من بعض الناس في بعض الأمكنة والأزمنة، مثل شيخ كبير السن في زمرة المنتسبين الى العلم يباشر الملاهي والغنا عند جوار الروضات المقدسات فمثل هذه المعصية وإن كانت من ذنوب القوى الحيوانية إلّا أنها دالة على فساد الاعتقاد بحرمة الرسول وأولاده الامجاد عليهم عظام التسليمات من الملائكة الجواد، فممنشأ الخلود في العقاب بالحقيقة ليس إلّا رذيلة الناطقة كالكفر وما يوجبها .

المنظر الثالث

في تقرير الجواب عن حجة من يعتقد اشتراك أصحاب الكبائر مع الكفار في الخلود في النار كالمعتزلة وغيرهم

اعلم أن في اثبات الوعيد لأصحاب الكبائر - غير الكفر بالله وآياته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر - إذا ماتوا قبل التوبة خلافاً لأهل القبلة وبين علماء الاسلام: فمنهم من قطع لوعيدهم إمّا مخلداً - وهو قول جمهور المعتزلة والخوارج وإمّا منقطعاً - وهو قول البشر المريسي والخالدي - ومنهم من قطع بأنه لا وعيدهم وينسب الى مقاتل بن سليمان المفسر .

والذي عليه أكثر المحققين والصحابه والتابعين وأصحابنا الامامية وأهل السنة

القطع، لجواز العفو عنه تعالى، وبأنه سبحانه يعفو عن بعض العصاة وأنه إذا عذب أحداً منهم فلا يعذبه أبداً، ولكننا نتوقف في حق البعض المعفو عنه والبعض المعذب على التعيين.

أما المعتزلة كصاحب الكشاف وغيره فاستدلوا بأدلة سمعية كالعمومات الواردة في وعيد الفساق كقوله تعالى: ﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ (البقرة: ٢: ٨١) وقوله: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سَجِينٍ﴾ (المطففين: ٨٣: ٧) وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ (النساء: ٤: ١٠).

ومن الحديث: «من شرب الخمر في الدنيا ولم يتب منها لم يشربها في الآخرة»^١ و«من قتل نفساً معاهداً لم يرح رائحة الجنة».

«الذي يشرب في آنية الذهب والفضة انما يجرجر في بطنه نار جهنم».

وعن أبي سعيد الخدري: قال عليه السلام «والذي نفسى بيده لا يبغضنا أهل البيت رجل إلا دخل النار»^٢ وإذا استحقوا النار ببغضهم فلأن يستحقوا بقتلهم أولى.

وأجيب بالمنع من أن هذا صيغ العموم بدليل صحة ادخال الكل والبعض عليها، نحو: كل من دخل دارى فله كذا، وبعض من دخل، ولا يلزم تكريره ولا تناقض، ولأن الأكثر قد يطلق عليه لفظ الكل ولا احتمال المخصصات.

والقاطعون بنفى العذاب عن الكبائر احتجوا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (النحل: ١٦: ٢٧) ﴿يَا عِبَادِ الَّذِينَ أُسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ (الزمر: ٣٩: ٥٣) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ (الرعد: ١٣: ٦) ﴿لَا يَصْلِيهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ الذي كذب وتولى ﴿(الليل: ٩٢: ١٥-١٦).

وبالعمومات الواردة في الوعد مثل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ (البقرة: ٢: ٤) حكم بالفلاح على كل من آمن.

وعورض بالعمومات.

وأما المحققون الذين قطعوا بالعفو في حق البعض فقد تمسكوا بنحو قوله عز من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النور: ٢٤: ٣٥) وبأن عمومات



١. مسند أحمد، ج ٢، ص ٩٨؛ صحيح مسلم، ج ٦، ص ١٩٩؛ سنن ابن ماجه، ج ٢، ص ١١٢٠؛ تفسير الرازي، ج ٣، ص ١٥١.
٢. صحيح ابن حبان، ج ١٥، ص ٤٣٤؛ كنز العمال، ج ١٢، ص ١٠٢.



الوعد والوعيد لمّا تعارضتا فلا بدّ من الترجيح الوعيد يوجب ترجيح الجانب الوعد بصرف التأويل، لأنّ العفو عن الوعيد مستحسن عند العقل، والمعتزلة أيضاً معترفون بأنّ العفو مستحسن عقلاً إلاّ أنّ النقل لم يساعده - على زعمهم - فاهمال الوعد يكون بالضدّ فترجيح لجانب المرجوح.

وأيضاً القرآن مملو من نحو قوله: «غفوراً، رحيماً، كريماً» وكذا الأخبار في هذا المعنى يكاد يبلغ حدّ التواتر.

وأيضاً أنّ صاحب الكبيرة أتى بما هو أفضل الخيرات - وهو الايمان - ولم يأت بما هو أقبح القبائح - وهو الكفر - فلا يهدمه ماسوى الكفر عن المعاصى ولهذا قال يحيى بن معاذ الرازى: «الهى إذا كان توحيد ساعة يهدم كفر خمسين سنة فتوحيد خمسين سنة كيف لا يهدم معصية سنة، الهى لمّا كان الكفر لا ينفع معه شىء من الطاعات، كان مقتضى العدل أنّ الايمان لا يضر معه شىء من المعاصى»^١

فاذا دلّت الايات على الوعد والوعيد فلا بدّ من التوفيق بينهما، فامّا أن يصل العبد الى دار الثواب ثمّ الى دار العقاب - وهو باطل بالاجماع - أو يصل اليه العقاب ثمّ ينقل الى دار الثواب ويبقى هنالك أبداً - وهو المطلوب.

المنظر الرابع

فى تقرير الاشكال فى خلود العذاب بالنار لأهل النكال من الكفار والجواب
عن هذا السؤال مايتأتى لأحد من المقال

اعلم أنّ فى تعذيب الله بعض عباده عذاباً أبدياً اشكالا عظيماً خصوصاً عند القائلين بالتحسين والتقيح العقليين، فانّ الله خالق العباد وموجدهم ومبدئهم ومعادهم، وشأن العلة الفاعلة الافاضة والايجاد على معلوله، إذ ليس المعلول إلّا رشحة من رشحات جوده ولمعة من لعمات وجوده، والتعذيب الأبدى منافى الايجاد والعلية.

وأيضاً فانّ ذاته محض الرحمة والخير والنور وكلّ ما يصدر عنه يجب أن يكون من باب الجود و اللطف والكرم، ووجود العاهات والشورور إنّما يكون عنه بالعرض وعلى سبيل الشذوذ و التدور، ولأنّ «سبقت رحمته غضبه»^٢، فانّ الرحمة ذاتية والغضب أمر عارض

١ . التفسير الرازى، ج٣، ص ١٦٠

٢ . الصحيفة السجادية، دعاؤه فى موقف عرفة، ص٣٤٥؛ مصباح المتهدّج، ص٤٤٢

والعرض الاتفاقي لا يكون دائماً - كما حقق في مقامه .

قال العلامة القيصرى فى شرح الفصوص : «واعلم أن من اكتحلت عينه بنور الحق ، يعلم أن العالم بأسره عباد الله ، وليس لهم وجود وصفة وفعل إلا بالله وحوله وقوته ، وكلهم محتاجون الى رحمته وهو الرحمن الرحيم ، ومن شأن من هو موصوف بهذه الصفات أن لا يعذب أحداً عذاباً أبدياً»^١ .

فهذا تقرير الاشكال ، ولصعوبته أنكر الشيخ محى الدين الاعرابى الخلود فى العذاب من الله تعالى لأحد من العباد زاعماً أنه ليس فى شىء من الايات نصاً لا يقبل التأويل فى خلود التعذيب بالنار ، بل فى خلود الكون فيها للكفار .

قال فى الفص اليونسى من فصوص الحكم : «وأما أهل النار فمآلهم الى النعيم ولكن فى النار ، إذ لا بد لصورة النار بعد انتهاء مدة العذاب أن يكون برداً وسلاماً على من فيها ، وهذا نعيمهم ، فنعيم أهل النار بعد استيفاء الحقوق نعيم خليل الله ﷺ حين ألقى فى النار ، فإنه ﷺ تعذب برؤيتها وبما تعود فى علمه وتقرر من أنها صورة تؤلم من جاورها من الحيوان ، وما علم مراد الله فيها ومنها فى حقه ، فبعد وجود هذه الآلام وجد برداً وسلاماً مع شهود الصورة النارية فى حقه ، وهى نار فى عيون الناس ، فالشىء الواحد قد يتنوع فى عيون الناظرين»^٢ .

وغاية ما يتأتى لأحد أن يقول فى التفصى عن هذا الاشكال : أن مراتب العذاب مختلفة بالاضافة الى الاحاد ، فربّ عذاب يكون شديداً لأحد ضعيفاً لغيره ، ومراتب الشدة والضعف مختلفة باختلاف المشاعر والمدارك ، كما تجد هذه التفرقة فى الأشخاص المعذبين فى هذه الدنيا ، بل ربّ عذاب لأحد يكون راحة ولذة لآخر ، كما ترى من اشتغال بعض الناس بأمور دنيّة ومناصب خسيسة يكون فيها غاية الألم والعذاب للنفوس الشريفة ، ومع ذلك يفتخرون بها ويباهون على غيرهم .

كيف لا وجميع الشهوات واللذات الدنيوية عند أرباب المعارف الالهية يكون من قبيل الآلام والغموم ، ويكون مباشرتها والتلذذ بها كمباشرة الكناسى والاتونى بالروث والسرقيين وتلذذهم عن رائحتها ، كما ان تنفر أكثر الناس عن العلوم الحقيقية والمعارف الالهية كنفر الجعل من روائح الورد .

١ . شرح فصوص الحكم ، الفص الهوى ، ص ٧٢٦

٢ . نفس المصدر ، الفص اليونسى ، ص ٩٨٤



ثم إن «العذاب» كما قد يراد منه المعنى المصدرى أى : التعذب ، كذا يراد منه اسم ما يتعذب به كالنارمثلاً ، وهذا غير مستلزم لذاك ، فالنصوص الواردة فى الخلود فى العذاب أيضا لو كانت مثل قوله تعالى : ﴿ لا يخفف عنهم العذاب ﴾ (البقرة ٢: ١٦٢) يمكن أن يأول فيها «العذاب» بالمعنى الاسمى لا المصدرى ، وإن كان الثانى أظهر بحسب اللفظ .

ثم لا يذهب على أحد أن الكون فى الجحيم غير مستلزم للعذاب الأليم ، فإن الزبانية والسدنة من سكانها ليسوا معذبين بها كما مر ذكره آنفاً ، والقول بانتهاء مدة التعذيب للكفار وإن كان باطلا عند جمهور الفقهاء والمتكلمين وبدعة وضلالة لادعائهم تحقق النصوص الجلية فى خلود العذاب ووقوع الاجماع من الأمة فى هذا الباب إلا أن كلاً منها غير قطعى الدلالة بحيث تعارض الكشف الصريح أو البرهان النير الصحيح .

أما النص : فما من لفظ إلا ويمكن حمله على معنى آخر غير ما هو الموضوع له بأحد الدلالات وإن كان الأصل والمعتبر هو المعنى المطابقى ، لكن الكلام هنا ليس فى الأصل والترجيح ، كما فى الفروع والظنية التى يكفى للعمل بها مجرد الأصل والرجحان ، بل فى اليقينيّات التى لا ينجح فيها إلا العلم بالبرهان ، والشهود بالعيان .

وأما الاجماع - وخصوصاً بالمعنى الذى ذهب اليه أصحابنا رضوان الله عليهم أجمعين - : فليعلم أن اجماع علماء الظاهر فى أمر يخالف مقتضى الكشف الصحيح ، الموافق للكشف الصريح النبوى والفتح الصحيح المصطفوى - على الصادع به وآله أفضل الصلوات والتسليمات - لا يكون حجة عليهم ، فلو خالف من له هذه المشاهدة والكشف اجماع من ليس له ذلك لا يكون ملاماً فى المخالفة ولا خارجاً عن قانون الشريعة ، لأخذه ذلك عن باطن رسول الله ﷺ .

فيجب على الطالب الايمان بالله وكتبه ورسله وأوليائه واليوم الآخر والجنة والنار والحساب والثواب والعقاب وعلى أن كل ما أخبروا به فهو حق وصدق لا شك فيه ولا شبهة تعتريه ، والعمل بمقتضى ما أمروا به والانتهاى عما نهوا عنه على سبيل التقليد ، لتتكشف له حقيقة الأمر ويظهر له السر المصون فى كل من المأمورات والمنهيّات عن علم ويقين ، بل عن الشهود والعيان لا بمجرد التقليد والايمان ، فيتفطن الى أمور أعلى منها فيزيد فى العبادة ، كما كان يعبد رسول الله ﷺ ، فإنه قام الليل حتى تورمت قدماه ، فقليل له فى ذلك : « إن الله

قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر» فقال عليه وآله الصلوة والسلام: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟»^١.

اعلم أن الفقهاء وإن كانوا عالمين بأحكام الله إلا أنهم في معرفة الذات و الصفات والأفعال الإلهية كباقي المقلّدين من المؤمنين، بخلاف أهل التوحيد الشهودي، لشهودهم بالنور الإلهي الحق وصفاته وأفعاله، وكيفية تصرفاته في الوجود لا يتطرق عليهم الشبهة ولا يدخل في قلوبهم الريبة ولا يحكم عليهم الأوهام، ولا يطء على مرأيا قلوبهم الرين والظلام، فهم الموحدون حقاً والعارفون برّبهم صدقاً و يقيناً - لا ظناً وتخميناً - .

فلا يظن أحد أن ورعهم في أمور الدين واحتياطهم في عدم القول في مسألة شرعية بمجرد الظن والتخمين يكون أقل من ورع غيرهم واحتياطه - هيهات هذا من بعض الظن - إنما بلوغهم الى هذه المرتبة التي كانوا عليها بطاعة الشريعة وخدمة الدين واتباع سيّد المرسلين عليه وآله أفضل صلوات المصلّين، بالذهن الصافي والقلب النقي الخاشع الخاشي عن الله، والضمير الخالص عن كل شوب وغرض .

وأني يوجد لغيرهم ما كان لهم، وهم في الحقيقة أولياء الله وقوام الدين وفقهاء شريعة سيّد المرسلين، والحكماء في معارف الحق واليقين، وهم في الحقيقة ما وصفهم الله تعالى في آية: ﴿يحبّهم ويحبّونه﴾ (المائدة: ٥) : (٤٥) وهم الذين أمر الله رسوله ﷺ بمجالستهم والصبر معهم في السراء والضراء في قوله: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم﴾ (الكهف: ١٨) : (٢٨)، وهم الذين رفع الله قدرهم عن سائر الأمة لقوله تعالى ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين﴾ (الأنعام: ٥٢) : (٦).

وهم الذين قال خاتم النبيين في حقّهم تفخيماً وتعظيماً واجلالاً وتكريماً لشأنهم: «إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن»^٢، وهم الذين وصفهم أمير المؤمنين وسيّد الأوصياء الموحدّين في حديث كميل بن زياد بما وصفهم .

فاذا كان حالهم على هذا المنوال من العلم والمعرفة والورع والتقوى، فالقدح من أحد

١. الاحتجاج، ج ١، ص ٣٢٦؛ عوالي اللئالي، ج ١، ص ٣٢٦؛ مسند أحمد، ج ٤، ص ٢٥١؛ صحيح البخاري، ج ٦، ص ٤٤
٢. فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج ٤، ص ١٧٠؛ كشف الخفاء، ج ١، ص ٢١٧، ح ٦٥٩





فيهم في مسألة اعتقادية دينية يدل على قصور رتبة القادح وسوء فهمه وقلة انصافه ، بل الأولى له السكوت عما لا يصل اليه عقله من درك مقالهم وفهم حالهم - والله أعلم بسرائر عباده وبواطن أقوالهم - .

قال القيصرى^١: «اعلم أن المقامات الكلية الجامعة لجميع العباد في الآخرة ثلاث - وإن كان كل منها مشتملا على مراتب كثيرة لا تحصى - وهي: الجنة، والنار، والأعراف الذي بينهما - على ما نطق به الكلام الالهي - ولكل منها اسم حاكم عليه يطلب بذاته أهل ذلك المقام، لأنه رعاياه وعمارة ذلك الملك بهم .

والوعد شامل للكل، إذ وعده في الحقيقة عبارة عن إيصال كل واحد منها الى كماله المعين له أزلا، فكما أن الجنة موعود بها كذلك النار والأعراف موعود بهما .

والإيعاد أيضاً شامل للكل، فإن أهل الجنة يدخلون الجنة بالجناب والسائق، قال الله تعالى: ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ (ق: ٥٠: ٢١) والجناب: المناسبة الجامعة بينهما بواسطة الأنبياء والأولياء، والسائق: هو الرحمن بالإيعاد والابتلاء بأنواع المصائب والمحن، كما أن الجناب الى النار: المناسبة الجامعة بينهما وبين أهلها، والسائق: الشيطان، فعين الجحيم موعود لهم لا متوعد بها .

والوعيد: هو العذاب الذي يتعلّق بالاسم «المنتقم» وتظهر أحكامه في خمس طوائف لا غير، لأن أهل النار إما مشرك أو كافر أو منافق أو عاص من المؤمنين، وهو ينقسم الى الموحد العارف الغير العامل، والمحجوب، وعند تسلط سلطان «المنتقم» عليهم يتعدّبون بنيران الجحيم، كما قال تعالى: ﴿أحاط بهم سرادقها﴾ (الكهف: ١٨: ٢٩) ﴿ونادوا يا مالک ليقض علينا ربك﴾ (الزخرف: ٤٣: ٧٧) ﴿لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ (البقرة: ٢): (١٦٢) وقال: ﴿إنكم ماكنون﴾ (الزخرف: ٤٣: ٧٧) ﴿اخشسوا فيها ولا تكلمون﴾ (المؤمنون: ٢٣: ١٠٨) . فلما مرّ عليهم السنون والأحقاب و اعتادوا بالنيران ونسوا نعيم الرضوان قالوا: ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص﴾ (ابراهيم: ١٤: ٢١) فعند ذلك تعلقت الرحمة بهم ورفع عنهم العذاب، مع أن العذاب بالنسبة الى العارف الذي دخل فيها بسبب الأعمال التي تناسبها عذب من وجه وإن كان عذاباً من وجه آخر، كما قيل:

وتعذيبكم عذب وسخطكم رضى
وقطعكم وصل وجوركم عدل

لأنه يشاهد المعذب في تعذيبه ، فيصير التعذيب سبباً لشهود الحق ، وهو أعلى ما يمكن من النعيم حيثئذ في حقه .

وبالنسبة الى المحجوبين الغافلين عن اللذات الحقيقية أيضاً عذب من وجه كما جاء في الحديث : «إن بعض أهل النار يتلاعبون فيها بالنار» و«الملاعبة» لا تنفك عن التلذذ وان كان معذباً لعدم وجدانه ما أمن به من جنة الأعمال التي هي الحور والقصور .

وبالنسبة الى قوم يطلب استعدادهم البعد من الحق والقرب من النار وهو المعنى بجهنم أيضاً عذب ، وإن كان في نفس الأمر عذاباً كما يشاهد هاهنا ممن يقطع سواعدهم ويرمي أنفسهم من القلاع - مثل بعض الملاحدة - ولقد شاهدت رجلاً سمر في أصول أصابع إحدى يديه خمسة مسامير غلظ ، كل مسمار مثل غلظ القلم ، واجتهد المسمر ليخرجه من يده فما رضى بذلك ، وكان يفتخر به وبقي على حاله الى أن أدركه الأجل .

وبالنسبة الى المنافقين الذين لهم استعداد بالكمال واستعداد النقص ، وإن كان أليماً لا دراكهم الكمال وعدم امكان وصولهم اليه ، لكن لما كان استعداد نقصهم أغلب رضوا بنقصانهم وزال عنهم تألمهم بعد انتقام «المنتقم» منهم بتعذيبهم ، وانقلب العذاب عذاباً ، كما نشاهد ممن لا يرضى بأمر خسيس أولاً ، ثم إذا وقع فيه وابتلى به وتكرر صدوره منه تألف به واعتاد ، فصار يفتخر به بعد أن كان يستقبحه .

وبالنسبة الى المشركين الذين يعبدون غير الله من الموجودات فينتقم منهم «المنتقم» لكونهم حصروا الحق فيما عبدوه وجعلوا الاله المطلق مقيداً ، وأما من حيث أن معبودهم عين الوجود الحق الظاهر في تلك الصورة فما يعبدون إلّا الله ، فرضى الله عنهم من هذا الوجه ، فينقلب عذابهم عذاباً في حقهم .

وبالنسبة الى الكافرين أيضاً وإن كان العذاب عظيماً لكنهم لم يتعذبوا به لرضاهم بما هم فيه ، فإن استعدادهم يطلب ذلك ، كالاتوني الذي يفتخر بما هو فيه ، وعظم عذابه بالنسبة الى من يعرف أن وراء مرتبتهم مرتبة ، وأن ما هم فيه عذاب بالنسبة اليها .

وأشكال العذاب غير مخلد على أهله من حيث إنه عذاب ، لانقطاعه بشفاعه الشافعين «وأخر من يشفع هو أرحم الراحمين»^١ كما جاء في الحديث الصحيح ، لذلك ينبت الجرجير في قعر جهنم لانقطاع النار وانقطاع العذاب ، وبمقتضى «سبقت رحمتي غضبي» ، فظاهر

١ . شرح الأسماء الحسنى ، ج ١ ، ص ٦٤



الآيات التي جاء في حقهم بالتعذيب كلها حق، وكلام الشيخ - رضى الله عنه - لا ينافي ذلك، لأن كون الشيء من وجه عذاباً لا ينافي كونه من وجه آخر عذاباً.^١

المنظر الخامس

في ذكر جملة من خواص أولياء الله وعلاماتهم وخواص أولياء الطاغوت وعلاماتهم، ليعرف الانسان أحوال المؤمن الحقيقي من أحوال المنافق، لينكشف لمية كون أحدهما من أهل الله وأهل النور، وكون الثاني من أهل الطاغوت وأهل النار



أما أحوال أولياء الله - وهم المؤمنون حقاً - فمنها ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾ (الأفانال: ٨) (٢) معناه أن المؤمن الحقيقي والعارف اليقيني الذي كتب الله بقلم العناية في قلبه الايمان، وأيده بروح منه فهو على نور من ربه، فاذا ذكر الله وجل قلبه، فإن وجل القلب عند سماع ذكر الله من خصوصية المعرفة والحكمة بالله و صفاته و أفعاله، إذ الحكمة هي النور المنبسط الايماني الذي قذف الله في قلوبهم، ومن شأن نور الايمان أن يرق القلب و يصفيه عن كدورات صفات النفس وظلمتها، ويلين قسوته فتلين الى ذكر الله و يحن شوقاً الى الله .

وهذا حال أهل البدايات، أما حال أهل النهايات فهي الطمأنينة والسكون بالذكر، لقوله تعالى: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ (الرعد: ١٣) (٢٨) . وقال ﷺ - فيما روى عنه - : «إن أحب القلوب الى الله أصلبها في دين الله وأصفها عن الذنوب، وأرقها على الاخوان»^٢، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً «فجعل من شروط

١ . وليعلم أن المصنف - قدس سره - في كتابه «الحكمة العرشية» - الذي قيل أنه آخر مصنفاته - صرح بدوام الخلود وتسرد العذاب حيث قال :

«وأما أنا والذي لاح لي بما أنا مشغول به من الرياضات العلمية والعملية أن الجحيم ليست بدار نعيم، وإنما هي موضع الألم والمحن، وفيها العذاب الدائم، ولكن آلامها متفتنة متجددة على الاستمرار بلا انقطاع، والخلود فيها متبدلة وليست هناك موضع راحة واطمئنان» .

وكما أشار في أواسط المنظر الرابع بقوله: «فيجب على طالب الايمان على سبيل التقليد أن يشك فيه حتى ينكشف له حقيقة الأمر ويظهر له السر المصون...»

٢ . في المصدر : من

٣ . فقه الرضا، ص ٣٨١ ؛ بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ٥٦، ح ٢٦

الايان الحاصل فى القلوب ازدياده عن سماع القرآن وتلاوته ، لاشتماله على ذكر الله والمعارف الالهية .

وذلك لأن الايمان الحقيقى هو النور الواقع فى القلوب بقدر انفتاح روزنة القلوب من أنوار تجلى شمس صفاته وحقائق أفعاله للقلوب المشتاقة ، فيكون وجوه قلوبهم الخالية من دنس حب الدنيا بسبب ذلك النور الى ربها وحببها ناظرة ، فان «الايان يجر بعضه الى بعض» و«بالمعرفة يكتسب المعرفة» ، فكلما تليت على أصحابها الآيات أو تلاوها أو ذكر الله أو ذكروه ، زاد انفتاح روزنتها بقدر صدقها وشوقها ومناسبتها ، فيزيد فيها نور الايمان فيزدادوا ايماناً مع ايمانهم .

﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ : يعنى فحينئذ على ربهم يتوكلون ، لا على الدنيا وأهلها ، فان من شاهد جمال الحق وجلاله بنور الايمان فقد استغرق فى بحر سطوات جلاله ، فيكون توكلهم عليه لا على غيره ، ومنهم ما وصفهم الله بقوله ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم﴾ (هود: ١١: ٢٩) يعنى : إن المؤمن من يكون درجته درجة الملائكة المقربين الذين يلاقون ربهم من فوقهم لا واسطة بينهم وبين ربهم ، وذلك لارتقائهم عن عالم الطبيعة بجناحى العلم والعمل الى جوار الله .

ومن العلامات المختصة بهم ما ذكره تعالى مخاطباً لابليس اللعين : ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان﴾ (الحجر: ١٥: ٤٢) وحكى أيضاً قول ابليس محارباً لله جلّت عظمتة : ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ (الحجر: ١٥: ٤٠) .

ومنها ما وصفهم بقوله تعالى ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ الى آخر السورة (الفرقان: ٢٥: ٦٣-٧٧)

ومنها ما أشار اليه بقوله : ﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ (الشعراء: ٢٦: ٩٨) .

وهذه عمدة صفاتهم ، لأن الأصل فى جميع الخيرات سلامة الصدر من الغل والغش والدغل والحسد والبغض والكبر والحرص والطمع والمكر والزنا والخديعة والنفاق وما أشبهها من الخصال المذمومة التى أكثرها ينشأ من التشبه بأهل العلم فى الزى والمنطق من غير عرفان ، وطلب الترفع من غير استيهال وهو بذر النفاق والعناد ومادة السيئات .

ومنها الخوف والخشية كما فى قوله تعالى : ﴿وهم من خشيته مشفقون﴾ (الأنبياء: ٢١: ٢٨)

وقوله : ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (فاطر: ٣٥: ٢٨) .





فهذه وما أشبهها خصال أولياء الله بحسب الملكات والأخلاق العملية .
وأما الأعمال والأفعال الواجبة أو المندوبة فجميعها يرجع الى تصفية القلب ، وهى أمر
عدمى عبارة عن رفع المانع وازالة الحجاب عن الوصول الى الحق والحقيقة من الطبع
والرين الحاصل فى مرآة القلب بحسب غبار الهيئات المرتفعة اليه من عالم الحواس ومعدن
الوسواس .

وأما علاماتهم وخصالهم العلمية التى هى غاية قصودهم وثمره وجودهم ؛ لأن الايمان
والعرفان بالله وصفاته وملائكته وأفعاله وكتبه ورسله واليوم الاخر هى الغاية القصوى والثمره
العليا من وجود الانسان وبقائه .

فمنها طريق تحصيلهم للمعارف وسبيل سيرهم الى الله ، وهو الصراط الذى وصفه الله
بالمستقيم ، وقال تعليماً لعباده استدعاء ذلك من الله بقوله : ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾
(الحمد (١): ٦) .

وهو الصراط الذى سلكه جميع أنبيائه وأوليائه كما أشير اليه بقوله تعالى ﴿وهذا صراط
ربك مستقيماً﴾ (الأنعام (٦): ١٢٦) وقوله ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا
اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى﴾ (الشورى (٤٢): ١٣) وقوله : ﴿كذلك يوحى اليك
والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم﴾ (الشورى (٤٢): ١٣) وقوله : ﴿وما أرسلنا من قبلك
من رسول إلا نوحى اليه انه لا اله إلا أنا فاعبدون﴾ (الأنبياء (٢١): ٢٥) وقوله : ﴿إن هذا لفى
الصحف الأولى﴾ صحف ابراهيم وموسى ﴿(الأعلى (٨٧): ١٩١٨) .

وهو الطريق الذى لا يتطرق اليه نسخ و تغيير ، ولا فيه تخالف وتناقض ، لكونه من عند
الله وبتوقيفه والهامه ، لا من جهة التقليد والتعصب واتباع الآباء وملازمة الأهواء ، لقوله : ﴿و
لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ (النساء (٤): ٨٢) .

وهو مسلك التوحيد الذى سلكه أفضل الأنبياء عليه وعليهم السلام ومتابعوه وشيعتهم
لقوله تعالى : ﴿قل هذه سبيلى أدعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى﴾ (يوسف (١٢): ١٠٨) .
وهو الطريق المستقيم الذى أمر الله نبيه أن يعلم الناس سلوكهم ويهديهم اليه ويأمرهم
باتباعه ونهاهم عن سلوك طريق غيره ، وهو فى قوله تعالى : ﴿إن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه
ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ (الأنعام (٦): ١٥٣) .



وذلك لأن استقامة الطريق يفضي سالكه الى المقصد في أقرب زمان، ولا بد للسالك أن يتحرى أقرب الطرقات، فإنه أسهلها مسلكاً وأقربها وصولاً وهو الذي لاعوائق فيه ولا عوج له، فلذلك ينبغي للقاصدين الى الله بعد تصفية نفوسهم عن درن الشهوات، والراغبين في نعيم الآخرة في دار السلام الذين يريدون الصعود الى ملكوت السموات والدخول في زمرة الملائكة بالولادة الثانية أن يتحروا أقرب الطرق اليه و أسهلها مسلكاً و أوثقها اعتماداً كما في قوله تعالى: ﴿ أولئك تحروا رشداً ﴾ (الجن (٧٢): ١٤).

ونحن نريد أن نبين الطريق المستقيم الذي أوصانا الله به وأمرنا باتباعه على السنة أنبيائه صلوات الله عليهم ما هو وكيف ينبغي أن نسلكه حتى نصل الى ما وعدنا به ربنا كما قال تعالى: ﴿ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم ﴾ (الأعراف (٧): ٤٤) ولكن لا يمكننا بيان ذلك إلّا بكلام موزون وحكمة بالغة وبرهان نير و دلائل واضحة:

أما البرهان النير فبالنظر الى حقيقة الوجود وما يلزمه وما يبدأ منه، كما قال سبحانه: ﴿ أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾.

وأما الدلائل الواضحة، فعلى مثل بيان الله وسنة أنبيائه وأوليائه عليهم السلام بالوصف البليغ بسائر آيات الله في الافاق وفي أنفسنا حتى يتبين أنه الحق، كما قال تعالى: ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار... آيات لقوم يعقلون ﴾ (البقرة (٢): ١٦٤) وقوله: ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ (الذاريات (٥١): ٢٠) وفي قوله ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (الذاريات (٥١): ٢١) فإذا فعلوا ذلك فتحت أبواب العلوم المخزونة والأسرار المكنونة التي لا يمسها إلّا المطهرون. ومما يجب أن يعلم أن كل من أراد أن يتبع سبيل أولياء الله أنه لا ينبغي أن يتكلم في ذات الباري ولا في صفاته ولا في أفعاله من حيث هي أفعاله بالحزر والتخمين ولا قبل تصفية النفس، فإن ذلك يؤدي الى الشكوك والحيرة والضلال كما قال الله تعالى: ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ (الحج (٢٢): ٨).

ومن لطائف خواصهم العلمية أنهم في الكمالات العلمية إما في مرتبة التام بذاته وهي بحسب أرواحهم التي مرتبتها مرتبة العقول الفعالة - وإما في مرتبة المكتفى بذاته - وهي بحسب نفوسهم التي في درجة نفوس الأفلاك - بخلاف غيرهم من أولى العلوم، إذ لا يمكنهم الاكتفاء في علومهم بالأسباب الداخلية والمقومات الداخلية، فإن علومهم ليست



من افاضة الله فقط بتوسط الملائكة النورية التي هي خزائن علم الله، بل يحتاجون في انحفاظ علومهم الى أسباب خارجية، وأوضاع حسية، وأسانيد متقدمة، حتى أن فرض ارتفاع الأسانيد والأوضاع الخارجية الحسية التي كانت جملتها من الأمور المتغيرة المتصرمة لبطت علومهم وزالت كمالاتهم.

فجميع المنتسبين الى العلوم التي هي دون علوم الأولياء والعرفاء ناقصون في كمالاتهم العلمية، إذ ليسوا في مرتبة التمام كالعقول القادسة والملائكة العلمية الذين كمالاتهم بالفعل من كل الوجوه ولا كمال منتظر لهم وليسوا أيضاً في مرتبة المكتفين بذواتهم وذوات علمهم المقومة الداخلية كالملائكة العمالة باذن الله في تحريك الأجرام العالية واستخراج الكمالات النفسية من القوة الى الفعل، بل هؤلاء يكونون أبداً محتاجين الى المشايخ والأسانيد، كالأعمى الذي يحتاج أبداً الى قائد خارجي و الى ما يسند اليه في سلوكه ومشيه. ومعنى الوراثة في «كون العلماء ورثة الأنبياء» صلوات الله عليهم أجمعين» هو أن علوم الأنبياء مستفادة من الله بلا مفيد بشري والمعلم الانساني يعنى أن علومهم المختصة بهم وبوراثهم ما كانت فائضة على قلوبهم من الله تعالى، حتى لو قطع النظر عن أسباب التعاليم الخارجية والأسانيد المنفصلة لكانت علومهم بحالها كما كانت، بل لا مدخلة لخصوصية هذه النشأة الدنياوية وغيرها من النشآت في بقاء علومهم وثباتها، حيث ثبتهم الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا والاخرة.

ومن علاماتهم العلمية كونهم موحدين لباري جل اسمه توحيداً لا يعرف كنهه غيرهم، إذ ليست وحدته تعالى من قبيل الوحدة العددية التي تنشأ منها الأعداد، ولا من النوعية والجنسية التي توجب الاشتراك، ولا من الشخصية التي توجب الانفصال عن الأمور الواقعة مع الشخص تحت كلى، ولا هو واحد بالوضع ولا بالكيف ولا بالكم ولا بالاضافة - كما مر، فوحدته تعالى خارجة عن جميع أقسام الوحدة التي عرفها الخلائق، فهم الذين عرفوا نحو وحدته تعالى.

ومن دقائق علومهم معرفتهم للأسباب القصوى للموجودات، والغاية التي تنحو نحوها الممكنات.

ومنها معرفتهم الملائكة الروحانيين والجن والشياطين، كما مر ذكره.

ومنها معرفتهم لأصناف الناس - الشقى منهم والسعيد - ومعرفتهم غاية كل فعل وقول وعمل بحسب الدار الآخرة .

ومن خصائص علومهم التي يدركونها بصفاء قلوبهم كيفية نشو الآخرة والجنة والنار الجسمائيتين والروحانيتين ، وكيفية توزع النفوس الى سكان كل منها .

ومن خصائص مشاهدتهم : يوم الحساب والميزان - كأن القيامة قد قامت في حقهم ، وكأنهم بعرش ربهم بارزون ومشاهدون لأهل الجنة منعمين وأهل النار معذبين - كما جاء في حديث حارثة لما سأله رسول الله ﷺ عن حقيقة إيمانه فأجاب بما أجاب^١ .

واليه أشار جل ذكره ﴿ وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴿ (الأعراف (٧): ٤٧) وهم ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ (النور (٢٤): ٣٧) وهم الذين ﴿ لا يمسهم سوء ولا هم يحزنون ﴾ (الزمر (٣٩): ٦١) وهم أولياء الله وعباده المخلصون الذين ليس للشيطان عليهم سلطان ، كما في قوله : ﴿ إنا عبادك منهم المخلصين ﴾ (ص (٣٨): ٨٣) .

واعلم أن الاخلاص في العمل بلاشوب غرض أو رياء لا يتصور لأحد إلا منهم ومن أتباعهم ، لأنه يتفرغ على المعرفة ، وليس لغير العلماء الربانيين معرفة يقينية بأحوال المبدأ وصفاته وأفعاله ، وإن كان قد أحكم سائر العلوم الغير الحقيقية ، بل معارفهم بالله على الظن والتخمين ، أو مجرد التقليد ، فاخلاصهم أيضاً اخلاص تخميني أو تقليدي^٢ .
فهذه جملة من خصال أولياء الله وخواصهم وعلاماتهم ، ويعرف منها صفات أضدادهم بأضداد صفاتهم ، إذ الأشياء قد تعرف بأضدادها .
قيل لأmir المؤمنين عليه السلام : « صف لنا العالم ؟ » فوصفه . فقيل : « صف الجاهل ؟ » فقال : « فعلت »^٣ .

فالمناقون وأعداء الله وأولياء الشياطين صفاتهم بعكس هذه الصفات المذكورة رأساً برأس ، يعرفها من يعرف هذه بالقياس ، إلا أنا نذكر بعضاً منها صريحاً ؛ لأنها من جملة ما

١ . الكافي ، ج ٢ ، ص ٥٤

٢ . ومما يدل اغترار جماعة من الناس بتقليد الآباء والمشائخ من غير بصيرة ظناً منهم أن كلامهم مأخوذ من أحكام الله وتعويلا على ظواهر أقوالهم قوله تعالى : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليه آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ (الأعراف (٧): ٢٨) - بخطه طاب ثراه - (من حاشية النسخة المطبوعة)

٣ . نهج البلاغه ، خطبه ٢٣٥





عرّف الله بها الجاحدين والمنافقين ، وكشف بها فضائحهم وجهلهم لعباده الصالحين ، وبين وخامة عاقبتهم وسوء حالهم يوم الدين ، ولما فيها من التنفر والتحذير عن الباطل للسالكين والتثبت والتقريب على الحق للمطيعين انشاء الله :

فمن علاماتهم ما وصفهم الله بازاء العلامة الأولى التي للأولياء في قوله : ﴿ وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (الزمر ٣٩: ٤٥) وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيَّنَّا تَعْرِفَ فِي وَجْهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ (الحج ٢٢: ٧٢) فان الاعراض عن ذكر الحبيب الأول أول شاهد على كون المعرض عدواً لله ولياً لعدوه اللعين .

وهذا حال أكثر المغرورين المتجردين بعلم الأفضية والفتاوى ، المعرضين عن علم التوحيد ، المكبين على غيره من العلوم التي يكون منشأ الشهرة والجاه عند الخلق ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ (المؤمنون ٢٣: ٧٠) . وقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ : « إِنْ مِنْ الْعِلْمِ كَهَيْئَةِ الْمَكْنُونِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا الْعُلَمَاءُ بِاللَّهِ ، فَإِذَا نَطَقُوا بِهِ لَمْ يَنْكَرْهُ إِلَّا أَهْلُ الْغُرَّةِ بِاللَّهِ »^١ .

ومنها ما وصفهم الله في قوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ (البقرة ٢: ٢٠٦) ، وهذا أيضاً حال أكثر الذين أوتوا نصيباً من الكتاب من غير وجهه ، كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (آل عمران ٣: ٢٣) ، استنكف عن النصيحة ومنعته الانفة وأخذته العزة التي زعمتها ثابتة لنفسه ، لأجل كونه مغروراً بالله تعالى ، معتقداً أنه من العلماء ، وأنه اللائق بالافتداء والحرى بأن ينصب في مقام النصيح والارشاد لغيره ، لا أن غيره يرشده ، فيغتاز من هذا .

ولم يعلم أن ما يعلمه من غير جهة التي وليها أهل الحق وجوههم شطرها وطريقة المستقيم الذي سلكه العلماء بالله والأتقياء ليس له طائل ولا يؤدي الى حاصل ، بل يكون بذر النفاق واللداد ومنبت الكبر والعناد ، وسيلعب به الشكوك حيراناً وفات منه الكمال واستعداد تحصيله جميعاً ، وخسر دنياه وأخراه رأساً ويصير من ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ (الكهف ١٨: ١٠٤) ﴿ وَغَرَّبَهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا

١ . كنز العمال ، ج ١ ، ص ١٨١ ، ح ٢٨٩٤٢

كانوا يفترون ﴿آل عمران (٣): ٢٤﴾ .

﴿ فكيف إذا جمعهم الله ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت ﴾ من مزرعة الدنيا - إما من الدرجات العلى أو الدرجات السفلى ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ ، بوضعهم في غير موضعهم بأن ينزل الجاهل الشرير في موضع العالم النحرير ويسكن أهل الدرجات في الدرجات ، وأهل الدرجات في الدرجات ، كما في هذه الدار ، لأنها دار اشتباه بخلاف اليوم الآخر ﴿ لا ظلم اليوم ﴾ ؛ لأنه ﴿ يوم الفصل ﴾ باعتبار وإن كان ﴿ يوم الجمع ﴾ باعتبار آخر .

ومنها ما وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ (لقمان (٣١): ٢١) الإشارة فيه أنه لا عبرة في أمر الدين بتقليد المشايخ السابقين والاباء الماضين واتباع مذهبيهم ، بل الواجب على العبد اتباع ما أنزل الله إليه بصدق النية في السعى و الطلب ، وخلص الطوية في الاجتهاد والعمل وقطع النظر عن تقليد الأسلاف واتباع الأخلاف ، فإن الإيمان نور من الله يقذف في قلب المؤمن بواسطة المجاهدة والرياضة ، ويخرجه من ظلمات التقليد .

وفي قوله : ﴿ أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ﴾ ، إشارة إلى أن آباؤهم من أهل الأهواء والبدع الذين لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون سبيلاً ، وإنهم ميتون لا يعقلون شيئاً ، والميت لا يصلح للاقتداء به والاهتداء ، بل المتبع في المعارف الالهية هو الواردات الكشفية عقيب الأعمال الفرعية ، والمجاهدات الدينية الحاصلة بنور المتابعة لروح الانسان الكامل المتحد نوره بنور العالم العقلي المصون عن الفناء والموت ، كما قيل : «أخذتم علمكم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت»^١ .

وفي فحوى الآية الإشارة إلى أن من يكون على جادة الحق وقدمه ثابتة على جادة الشريعة ومعرفة الطريقة وسلوك مقامات الحقيقة فيجوز الاقتداء به ، إذ هو من أهل الاهتداء إلى عالم الحقيقة دون من يدعى الشيخوخية بطريق الارث من الاباء والمشايخ ، ولا حظ لهم عن طريق الاهتداء به ، فإنهم لا يصلحون للاقتداء .

وهذا كما نجد عند التعمق حال أكثر المدعين للشيخوخة في هذا الزمان - أصلح الله بالهم وسدد أقوالهم ، ثم إذا صادف بعضهم من عنده علم من الكتاب استنكفوا عن التعلم منه لما رأوا ما عنده مخالف لما أخذوه من معلميههم تقليداً أو تعصباً ، ولما لحقهم بذلك

١ . فيض القدير شرح الجامع الصغير ، ج ٣ ، ص ٥٢٤ ؛ تفسير الآلوسى ، ج ٥ ، ص ٨٣





من ذلّ التعلّم واتّضاع القدر عند العامّة والمريدين .

كما أشار اليه تعالى بقوله: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله و الى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾ (المائدة: ٥) : (١٠٤) وقال سبحانه: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ قال أولو جئتكم بأهدى ممّا وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين﴾ (الزخرف: ٤٣) : (٢٥٢٣) .
فما أسخف عقلهم حيث تركوا ذكر الله ومعارف الحقائق خوفاً من اتّضاع قدرهم عند الجهلة ، فرجع عندهم ارتفاع الشآن عند الناقصين من العباد على علو المنزلة عند الله ومجاورة الملائكة المقربين ، فتبأ لجاههم الحقيير وسحقاً لحظهم اليسير ، أما تلوا قوله سبحانه: ﴿وان كل ذلك لَمَّا متاع الحياة الدنيا والاخرة عند ربك للمتقين﴾ ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾ وإِنَّهُمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مهتدون﴾ (الزخرف: ٤٣) : (٣٧-٣٥) .

ومنها ما ضرب الله لهم مثلاً بقوله: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلّادعاءً ونداءاً صمّ بكم عمى فهم لا يعقلون﴾ (البقرة: ٢) : (١٧١) هذه الحالة لهم أيضاً قريبة المأخذ من الحالة السابقة ، والغرض أنّهم لا يزالون يتبعون ويحدثون ظواهر الألفاظ ولا يرون بواطن المعانى والحقائق ، ولم يعلموا بعد - مع أنّهم سمعوا مراراً - أنّ امتياز الانسان عن سائر الحيوانات باستنباط الحقائق والمعارف ، لا تتبع الألفاظ وتصحيح العبارات من غير ارتقاء عن مضيق المحسوسات ومحبس الحيوانات واصطبل الدواب الى فسحة الأنوار الالهية وعالم المعارف العقلية الالهامية ومستوكر الطيور السماوية .

فهم أبداً واقفون في عالم الألفاظ والصور ولن يقصدوا الى معرفة النفس وما فوقها ، ولا الى اصلاح القلب الذى هو محل النطق الباطنى الذى يخص به الانسان من سائر الحيوانات ، وهو منبع المكاشفات والمكالمات مع الحق وقد ذمّ الله تعالى الناقصين الذين ليس لهم درجة المكالمة الباطنية مع الحق لكونهم في مرتبة الحيوان الأعجمى بقوله: ﴿لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة﴾ (آل عمران: ٣) : (٧٧) ومدح رسول الله ﷺ خواص أمته وأوليائهم وحكمائهم بأنهم محدثون مكلمون .

وليس المراد من هذا التكلّم والتحدّث ما يكون بالحديث الظاهرى والكلام الحسى -

الذي آتته جرم أحمر لحمى مركب من الأخلاط، فإنه من الدنيا ولا يكون شيء من الدنيا ممدوحاً ولا محبوباً إلا بقدر ما يعبر به ويجعل الزاد للآخرة، فإنها طريق الآخرة، بل الدنيا وما فيها مبعوضة ممقوتة ملعونة عند الله وعند أوليائه كما قال ﷺ: ﴿الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها﴾، وقوله ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»^١.



إنما المراد من المكالمة في قول الله ﷻ لا يكلمهم الله ﷻ، وفي قول رسول الله ﷺ: «إنهم محدثون مكلمون»، المكالمة الحقيقية بين الله وبين خواص عباده، وهي الافاضات العلمية المتواردة من الحق في المقاصد الربوبية عقيب التأملات القدسية الاستعدادية من العبد في المطالب الحكيمية الايمانية بتوسط بعض ملائكة الله العقلية، إما صريحاً مشاهدات في عالم المشاهدة البصرية والسمعية كما للأنبياء، أو لا كما لغيرهم.

أو لا ترى أن معنى «التكلم» في حقه تعالى عند أصحابنا الاماميين - رضوان الله عليهم - هو ايجاد القرآن أولاً في قلب جبرئيل عند نزوله في السماء الدنيا، ثم منه على قلب رسول الله ﷺ، ومنه الى قلوب حكماء أمته، فلاشارة في هذه الاية أن مثل الذين كفروا الان كان في الحقيقة وفي عالم الأرواح عند عهد الميثاق إذا خاطبهم الحق بقوله: «ألست بربكم»، كمثل الذي ينطق بما لا يسمع إلا دعاءاً ونداءاً، لأنهم كانوا في الصف الأخير، إذ الأرواح جنود مجندة^٢ في أربعة صفوف:

فكان في الصف الأول أرواح الأنبياء ﷺ، وفي الثاني أرواح الأولياء والشهداء، وفي الثالث أرواح المؤمنين، وفي الرابع أرواح الكافرين، فأحضرت الذرات التي استخرجت من ظهر آدم من ذرياته وأقيمت كل ذرة بازاء روحها، فخاطبهم الحق: ﴿ألست بربكم﴾. فالأنبياء سمعوا كلام الحق كفاحاً بلا واسطة وشاهدوا أنوار جماله بلا حجاب، ولهذا استحقوا هاهنا النبوة والرسالة والمكالمة والوحي ﷻ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﷻ.

والأولياء سمعوا كلام الحق وشاهدوا أنوار جماله من وراء حجاب أرواح الأنبياء، ولهذا احتاجوا هاهنا بمتابعة الأنبياء، فصاروا عند القيام بأداء حق متابعتهم مستحقين للالهام، والكلام من وراء الحجاب.

والمؤمنون سمعوا خطاب الحق وراء حجاب أرواح الأنبياء وحجاب أرواح الأولياء، و

١. الكافي، ج ٢، ص ١٣٠، ح ١١

٢. الأمل للصدوق، ص ٢٠٩؛ علل الشرايع، ج ١، ص ٨٤، ح ٢



لهذا هاهنا آمنوا بالغيب وقبلوا دعوة الأنبياء، وأن يبلغهم من وراء حجاب رسالة جبرئيل وحجاب رسالة الأنبياء ﷺ، فقالوا: ﴿سمعنا وأطعنا﴾. ومما يدل على هذه المراتب قوله تعالى: ﴿ما كان لبشر أن يكلمه الله إلّا وحياً﴾ يعني: الأنبياء ﴿أو من وراء حجاب﴾ يعني: الأولياء ﴿أو يرسل رسولا﴾ (الشورى (٤٢): ١٥) يعني المؤمنين .

وأما الكفار فلما سمعوا من ذرات المؤمنين من وراء الحجاب لما قالوا: «بلى» فقالوا بالتقليد والرياء ﴿: «بلى» ولهذا هاهنا قلدوا ما ألقوا عليهم آبائهم لقوله: ﴿إنّا وجدنا آبائنا على أمة و إنّا على آثارهم مقتدون﴾ (الزخرف (٤٣): ٢٣) .

فلما تعلقت أرواحهم بالأجساد وتكدّرت بكدورات الحواس والقوى النفسانية، و أظلمت بظلمات الصفات الحيوانية وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون - من التمتعَات البهيمية والحركات السبعية والأخلاق الشيطانية واللذات الجسمانية - فأصمهم الله وأعمى أبصارهم، فهم الآن «صم» عن استماع دعوة الأنبياء بسمع القبول، «بكم» عن قول الحق والاقرار بالتوحيد والمعارف اليقينية، «عمى» عن رؤية الآيات والمعجزات الباطنية، فهم لا يعقلون، ولا يعقلون أنهم صم بكم لا يعقلون، إذ لم يتصوروا من «الصمم» إلّا ما يعرض القوة السمعية الحيوانية، ولا عن «العمى» إلّا ما يعرض للقوة العينية الحيوانية، ولا من «العقل» إلّا ما للعوام من تدبير المعاش بالحيل الشيطانية .

خاتمة

اعلم أيّها الناظر في هذا المسطور والراغب في استجلاء أسرار هذا المزبور واستكشاف حقائقه ومبانيه واستيضاح مقاصده ومبانيه عليك أن تدبره حرفاً حرفاً وكلمة كلمة، جامعاً لنكتة المبتوثة فيه باضافة خواتمها الى سوابقها، والحاق متوسطات فوائدها بأوائلها ولواحقها، حتى إذا انتظمت في ذهنك نشأتها المعنوية، وتشخصت صورتها الروحانية انظر اليها بعين الانصاف والاستبصار نظراً ولى الأيدي والأبصار، فعند ذلك تعلم ما فى هذا المختصر من بدايع الأسرار وغرائب الآثار، ونفائس العلوم والاشارات ولطائف الفهوم والالهامات .

فما وجدت من فائدة وخير فاشكر لله و أحمده عليه، وما رأيت من نقص وخلل - لا تجد له محملاً صادقاً أو مخلصاً فى زعمك موافقاً - فان كان من باب اللفظ مجرداً فأصلحه



كرماً و جوداً، و إن كان من باب المعانى المطلوبة فذره فى بقعة الامكان ما لم يزدك عنه قائم البرهان، و إن لم يمكنك تلقيه بالايمان والتسليم فاستحضر قوله تعالى: ﴿وفوق كلّ ذى علم علم عليهم﴾ (يوسف: ١٢: ٧٦) فإن العلم بكتاب الله أوسع من أن تحضره حدّ معين أو تضبطه قانون مبين - هذا - مع أنّ البشريّة محلّ النقائص، فما كان من نقص وعيب فمنها، لا من الوارد من عالم الغيب .

ومع أنّ هاهنا موانع غير ما ذكرت: من ايراد كلام ملائم لطبايع الأنام . ومنها إننى لم أؤثر أن أسلك فى الصنایع العلمية - وخصوصاً فيما يتعلّق بتفسير كتاب الله - مسلك أهل البحث والجدل، لاسيّما ورد فى الكتاب والسنة التحذير عنه، كقوله تعالى: ﴿ما ضربوه لك إلّا جدلاً﴾ (الزخرف: ٤٣: ٥٨) وفى الحديث عن النبى ﷺ: «ما ضلّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلّا أوتوا الجدل»^١.

ومنها طلبى للتخليص والايجاز فى الكلام، والتقريب الى الأفهام، والاحتجاج فى كلّ معنى ومرام يوجب الأسهاب والأملال، فينقطع سير الأفكار دون الوصول الى التمام . ومنها أنّ قبلة مخاطبى فى معانى القرآن هم المحققون من أهل الله خاصة، أو المحبّون لهم والمتشبهون بهم، والمؤمنون بأحوالهم من أهل القلوب المنورة الصافية، والعقول القوية النافذة فى أقطار الملكوت الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي دعاءً عقلياً بلسان ملكوتى يريدون وجهه، يسمعون القول فيتبعون أحسنه بصفاء طوية وحسن اصغاء بعد تطهير قلبهم من صفتى الجدل والنزاع ونحوهما، متعرضين لنفحات جود الله فى أيام دهرهم، بل حرمت مناولة للموصوفين بأضداد هذه الصفات .

فمن كان حاله ما وصفناه فلا يحتاج الى التقريرات النظرية وتكرير المقدمات المتداولة الجمهوريّة التى أكبّ عليها الاشتهار، لأنّها ممّا وقع عليها له المرور فى أوائل التحصيل والانزعاج من المقام قبل أن وقع فى الطريق المستقيم الى الله الملك العلام، لقوله: ﴿إن منكم إلّا واردها كان على ربك حتماً مقضياً﴾ ثمّ ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾ (مريم: ١٩: ٧٢) .

وهكذا كان حال شيخ السالكين الى الله الجليل ابراهيم الخليل - على نبينا وآله وعليه السلام - حيث اشتغل أولاً بصفة المحاجة على الحق والمجادلة عليه مع قومه: ﴿ألم تر

١ . مسند أحمد، ج ٥، ص ٢٥٢؛ سنن ابن ماجه، ج ١، ص ١٩، ح ٤٨



الى الذى حاجّ ابراهيم ﴿البقرة(٢): ٢٥٨﴾ ثم أخذ فى طريق البرهان والكشف الذى حال السالك فى نفسه - لا بالقياس الى غيره - فوقع له المرور على مراتب الوجود حتى وصل بعد التجاوز عنها الى الحق المعبود قائلاً: ﴿وجّهت وجهى للذى فطر السموات والأرض﴾ (الكهف(١٨): ٢٩).

فهو إما مشارك مطلع يعرف صحّة ما يخبر به بما عنده من النور الذى يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، وإما مؤمن صحيح الفطرة صافى الايمان يشعر بصحّة ما سمع من وراء ستر رقيق، لكونه مستعداً للكشف، متهيئاً للتلقى، منتفعاً بما يسمع، مرتقياً بنور الايمان الى مقام البيان، فلهذا وقع منّا الاكتفاء بالتنبيه والتلويح ورجحناهما على البسط والتصريح، تأسياً لما رجّحه الله تعالى و اختاره فى كلامه المتين، واقتداءً بما أمر به سيّد المرسلين صلوات الله عليه وآله أجمعين حيث قال: ﴿قل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ (الكهف(١٨): ٢٩).

ولم يأمره باقامة المعجزة و اظهار الحجّة على كل ما يأتى به ويخبر عنه ولا بتحرير الأدلّة والقياسات وتقرير الحجج واستقصاء المقدمات مع تمكّنه ﷺ من ذلك لكونه صاحب الحجج الالهية والأدلّة الباهرة والايات المحقّقة الظاهرة ومن أوتى جوامع الكلم ومنح علم الأولين والآخرين، بل إنّما وقع ذلك منه فى بعض الأحيان مع بعض الناس فى أمور يسيرة بالقياس الى غيرها.

والمنقول أيضاً عن أوائل الحكماء - الذين اقتبسوا أنوار علومهم من مشكوة نبوة الأنبياء - نحو ما ذكرنا حيث كان دأبهم الخلوّة والرياضة والاشتغال على مقتضى قواعد شرايعهم التى كانوا عليها، فمتى فتح لهم شىء من العلوم الربانية ذكروا منه للتلاميذ والطلبة إن اقتضت المصلحة بلسان الخطابة أولاً، ثم إن توقّفوا عليه أقاموا لهم البراهين و الحجج، وربّما شوّبوا كلامهم بنوع من الجدل لمناسبة الطبايع اليه ابتداءً كما أمر به تعالى نبيه ﷺ فى قوله تعالى: ﴿أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾ (النحل(١٦): ١٢٥).

وكذلك ذكر الشيخ الرئيس فى المقالة السابعة من الهيآت الشفاء بقوله: «إنّ الحكمة كانت فى قديم ما اشتغل بها اليونانيون خطابية، ثم خالطها جدل وكان السابق الى الجمهور من أقسامها هو القسم الطبيعى، ثم أخذوا يتنبّهون للتعليمى، ثم الالهى». كل ذلك عناية

من الله تعالى في شأن عباده لأجل تكميلهم وارشادهم بحسب التدرج في التعليم والهداية من الأسهل الى الأصب، الى أن وقع الانتقال عنه الى ما فوقه، والتوجه لطلب معرفة جليلة الأمر من جناب الحق بالرياضة وتصفية الباطن، ولهذا كان لهم انتقالات من بعضها الى بعض .



وقال معلم اليونانيين أرسطو: «إننا ما ورثنا من الأقدمين إلّا ضوابط غير مفصلة وأمّا تفصيلها وتمييزها فذلك شيء قد كددنا فيه أنفسنا وأسهرنا فيه أعيننا حتى استقام الأمر» وقيل: لكل سلف سبق حق، ولكل خلف قدم صدق، فالمتقدمون اجتهدوا في التأسيس، والمتأخرون بذلوا وسعهم في التخليص والتجريد، وكما أن العلوم العقلية كملت شيئاً فشيئاً الى أن بلغ تمامها في عهد أرسطو فكذلك علم التوحيد وعلم طريق الآخرة اللذين يدور عليهما علوم جميع الأنبياء والأولياء - سلام الله عليهم أجمعين - مما أخذ في الاستكمال شيئاً فشيئاً من لدن آدم عليه السلام حتى تمّ وكمل بنائه ببعثة نبينا عليه السلام وبنزول القرآن على قلبه ليثبت به فؤاده .

فعلم مما ذكر أن علم التوحيد والنبوة وعلم المبدأ والمعاد مما قد بلغ غايته وتمامه بوجود الخاتم عليه السلام وبنزال القرآن الذي كان خلقه عليه السلام لقوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً﴾ (المائدة: ٥) (٣) واليه الإشارة فيما روى عن رسول الله عليه السلام: «كان بيان النبوة قديماً وبقي موضع لبنة فانطبقت موضعها»، وفي رواية: «فكنت أنا تلك اللبنة»^١.

وبالجملة لم يزل بناء أمر الأنبياء والأولياء والحكماء على تصفية الباطن وتهذيب السرّ بالمكاشفات الحقّة الالهية والمشاهدات الباطنية، وإنما انتشرت صنعة الجدل بعد أرسطو في عهد أتباعه المتسمين بالمشائين واستمرت الى الان، حتى أن أكثر المتأخرين المشهورين بالعلم والحكمة والحال زعموا أن مناط الوصول الى الحق المتعال هو الاطلاع على صنعة الكلام والمباحثة والغلبة في البحوث على الخصام والأفحام، أو علم الفتاوى والحكومات التي يستعين بها القضاة و الحكّام في الأحكام . وأمّا علم طريق الآخرة وما سمّاه الله في كتابه فقهاً وحكمة وعلماً ونوراً فقد اندرس بين الخلق مطوياً، بل صار نسياً منسياً .

١ . عوالى اللغالى، ج ٤، ص ١٢٢؛ مسند أحمد، ج ٥، ص ١٣٧؛ تفسير ابن عربى، ج ١، ص ٣٩٧



فأقلّ ما يجب للطلبة والمشتغلين بالعلوم الدينية أن يحسنوا ظنّهم بالمستضيئين بنور الحق، المهتدين بهداه، السالكين على منهاج الشريعة الحقّة النبويّة، الآخذين عن ربّهم بواسطة مشكوة الرسالة الملكيّة والبشريّة، لا بواسطة أسباب كونية وسابقة آلات تعليميّة. ولا يظنّ أحد من الناظرين أنّه من شرط كلّ علم أن يؤخذ من الأستاذين أو يتلقف بالأسانيد والنقول من المشايخ والمعلّمين - كلّاً - وقد نبّه الحق سبحانه على هذا الأمر بكشف حال نبيّه ﷺ في سلوكه بما قال سبحانه: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا﴾ (الشورى (٤٢): ٥٢) وبقوله جلّ ذكره ﴿ما كنت تتلوا من كتاب ولا تحطه يمينك إذا لا رتاب المبطلون﴾ بل هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم ﴿العنكبوت (٢٩): ٤٨-٤٩﴾، فمثل هذا الذوق التام يسمّى علماً حقّاً ونوراً صدقاً، فأنّه كاشف سرّ الغيب ورافع كلّ شكّ وريب.

ومن حصر العلوم الاعتقاديّة على المنقول من المشايخ والمجتهدين أو المأخوذ من الأساتيد والمعلّمين فليس لنا معهم كلام، ولا بهم اعتداد، بل هم في وادٍ ونحن في وادٍ، واللّه الهادى الى طريق الرشاد والسداد، ويده أزمّة مصالح العباد، وصلى اللّه على محمد الهادى الى سبيل المبدأ والمعاد، وآله المعصومين عن الخطاء والفساد، فى العمل والاعتقاد.

كتبه مؤلّفه الفقير محمد بن ابراهيم الشهير بالصدر الشيرازى أوتى كتابهما يمينهما حامداً مسلماً مستغفراً.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی